أولا: الدراسات الأدبية

تجليات اللون في شعر الطبيعة عند سميح القاسم

الباحث: أيمن إبراهيم عبد الظاهر

الملخص باللغة العربية:

هذا البحث بعنوان: (تجليات الألوان في شعر الطبيعة عند سميح القاسم)، وهو يتوجه هذا صوب دراسة تجليات اللون في شعر الطبيعة عند الشاعر الفلسطيني المقاوم سميح القاسم، انطلاقًا من ملاحظة أن حضور الألوان ودلالاتها لا يكون في الغالب لمجرد الوصف الظاهري للأشياء كما تبدو من الخارج، وإنما توظيف إيحاءات الألوان وأبعادها الرمزية؛ لإكساب النصوص بُعدًا أكثر عمقًا يعبر عن الحالة النفسية والانفعالية للتجربة الشعرية.

وقد هدف البحث إلى دراسة ظاهرة بروز الألوان في شعر الطبيعة، والسياقات التي ترد فيها، ودلالات كل لون من هذه الألوان، وعلاقة هذه الألوان بالحالة النفسية والوجدانية المسيطرة على الجو العام للقصيد.

وقد بين البحث أن الألوان لها حضور يضفي على الصورة الشعرية قيمة كبيرة، فتساعد في تشكيل صورة الطبيعة، ورسمها، وتلوينها بألوان نابعة من الحالة الانفعالية والوجدانية للشاعر، فتتلون الطبيعة بألوان مبهجة وفرحة في حالة الرضا والسعادة والراحة والاطمئنان التي تنتاب الشاعر، وفي حالة الحزن والشقاء فإننا نجد الطبيعة تتلون بألوان قاتمة وشاحبة.

كلمات مفتاحية: الألوان – شعر الطبيعة – سميح القاسم

Abstract:

This research aims to study the manifestations of color in the nature poetry of the poet Samih Al-Qasim, starting from the observation that the presence of colors and their meanings is not mainly for the mere physical description of things as they appear from the outside, but rather the use of color allusions and their symbolic dimensions to give the texts a

dimension that reflects the psychological and emotional aspects of the poetic experience.

The research has shown that colors have a presence that adds great value to the poetic image, helping to shape the image of nature and depict it with colors stemming from the emotional and sentimental state of the poet. Nature is adorned with joyful and happy colors in a state of contentment, happiness, comfort, and tranquility experienced by the poet, while in times of sadness and misery, nature is depicted with dark and pale colors. Keywords: Colors, Nature Poetry, Samih Al-Qasim

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على سيد الخلق وحبيب الحق؛ سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فمن الأمور التي لا شك فيها أن الشاعر سميح القاسم[1] يعدُّ من أهم الشعراء الفلسطينيين المعاصرين، وقد اكتسب مكانته الشعرية وشهرته؛ بسبب كونه من أشهر وأهم شعراء الرفض في الشعر العربي المعاصر، ومن ثم فقد اتجه كثير من الباحثين والدارسين صوب أشعاره التي اتخذت من الرفض والمقاومة موضوعًا لها.

لكننا لاحظنا أن الطبيعة كانت المعين الذي امتاح منه شاعرنا سميح القاسم للتعبير عن ارتباطه بالمكان/الوطن، وكل ما فيه من أرض وسماء وماء وأشياء وموجودات، وكلها مفردات من مفردات الطبيعة، وقد لوَّن الشاعر هذه الطبيعة، وتلك الأشياء والموجودات بألوان متناسقة مع حالته النفسية والانفعالية الجياشة.

فشعر الطبيعة في أشعار سميح القاسم – إذن – له خصوصية تميزه عن غيره من الشعراء؛ حيث كان دائمًا تعبيرًا عن ارتباطه بوطنه، وتأكيدًا عن حبه وانتمائه لهذا الوطن، وقد عمد الشاعر إلى تلوين هذه الطبيعة بألوان خاصة، تتسق مع شعوره بالانتماء لهذه الطبيعة وحبه لها.

وقد انطلق البحث من ملاحظة ارتباط الشاعر سميح القاسم بالوطن (المكان) بأرضه وسمائه ومائه وكل ما فيه من موجودات ومكونات الطبيعة، فجاء هذا البحث بعنوان: (تجليات الألوان في شعر الطبيعة عند سميح القاسم)، ليتناول الظاهرة موضوع البحث؛ وحضورها وأبعادها ودلالاتها.

وقد هدف البحث إلى دراسة ظاهرة بروز الألوان في شعر الطبيعة، والسياقات التي ترد فيها، ودلالات كل لون من هذه الألوان، وعلاقة هذه الألوان بالحالة النفسية والوجدانية المسيطرة على الجو العام للقصيد.

وقد توصلت الدراسة إلى أن الألوان وسيلة مهمة من وسائل تشكيل صورة الطبيعة، من خلال حضورها وتلوين الطبيعة بصورة معبرة وموحية تعكس ما في القصائد من مضامين ومدلولات، مع ملاحظة أن اللون الواحد قد يحمل الكثير من الدلالات المتنوعة، المختلفة، والمتناقضة أحيانًا.

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي، حيث استقراء شعر الطبيعة، وتحليلها، والبحث في حضور الألوان، ودورها في تشكيل الصورة الشعرية في لوحة الطبيعة، وعلاقة هذه الألوان بالحالة النفسية والانفعالية المسيطرة على الجو العام للقصيدة، والبحث في كل هذا يعتمد على القراءة المتأنية العميقة في فحص النصوص ودراستها، لبيان أثر الألوان ودورها في تشكيل الصورة الشعرية، وأثرها في التعبير عن المعنى.

التمهيد

عند الحديث عن العلاقة بين الشعر والطبيعة فإننا ننطلق من القول بأنَّ الطبيعة هي كل ما خلق الله وأبدع من موجودات دون تدخل من جانب الإنسان، كالأرض والسماء، والنجوم والكواكب، والشمس والقمر، والسهول والهضاب والجبال، والمحيطات والبحار والأنهار، والنباتات والأشجار، والورود والأزهار... وغيرها من أشياء لا دخل للإنسان في وجودها أو تشكيلها، وهذه الأشياء والأماكن تمثل "الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات "[٢].

فإذا ما كانت الطبيعة تبدو للإنسان العادي جامدة لا تتحرك، ولا روح فيها، فهي بالنسبة للشاعر كائن حي كالإنسان يشعر نحوه بعواطف المودة والتأثر، ومن "المعروف أن الطبيعة من مصادر الجمال في الكون، حتى إن جمال الفن مشتق من جمالها وهو تقليد لها"[٣].

فالشاعر إنسان يتميز برهافة الإحساس وخصوبة الخيال وعمق الانفعال والتأثر بالعوالم والأماكن والأشياء والطبيعة المحيطة به، مما جعل الطبيعة المحيطة في كثير من الأحيان تمثل نقطة

البدء التي ينطلق منها العمل الإبداعي، وقد قيل عن الطبيعة إنها: "الملهم الأول لكل كاتب وكل شاعر، بل هي الملهم الأول لكل فن من الفنون"[٤].

يتميز الشاعر بأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، ويتأثر بكل ما حوله من أشياء وموجودات، فيتحرك ذهنه، وتشحذ قريحته نحو الإبداع والتحليق في سماء الشعر، فهو الأقدر على إنشاء علاقة تفاعل بينه وبين الطبيعة من حوله، من أجل التعبير عن مشاعره وعواطفه، فيصوغها صورًا شعرية محملة بالجمالية النابعة من جماليات الطبيعة، وأحيانًا أخرى من ذات الشاعر، فالعلاقة بين الشاعر والطبيعة علاقة حوارية إذ يضفي كل فنان على بعض من مظاهر الطبيعة "انطباعاته الخاصة التي تسم فنه وتميزه عن غيره، وكما يختلف كل فنان عن غيره في تلقي مظاهر الطبيعة، فإن طبيعة الفن ذاتها تفرض نفسها على الفنان"[٥].

وهذا التفاعل بين الشاعر والطبيعة يتسم بالتأثير والتأثر فالشاعر "وهو ينظر إلى الأمكنة لا يمنع نفسه من إضفاء فكره ومزاجه وعواطفه عليها"[٦]. فالأديب كما يتأثر بالمكان فإن المكان أيضًا يكون انعكاسًا للحالة النفسية والمزاجية للمبدع، أي إن الشاعر المبدع لا يشاكل بصوره الواقع الذي يصوره مشاكلة حقيقية، أو ينقله نقلًا حرفيًا؛ فهو لا يصور هذا الواقع في ذاته، وإنما يلون هذا الواقع بألوان مستوحاة من رؤيته له وإحساسه به، لذا فهو في نقل الواقع يقوم بنوع من إعادة خلق هذا الواقع وتشكيله تشكيلًا يعكس رؤيته وإحساسه.

شغلت الطبيعة بمفهومها الواسع المكاني والزمني، الطبيعي والإنساني قسطًا كبيرًا في ديوان (سميح القاسم)، الشاعر الثائر المناضل بالكلمة والشعر الرافض لكل أنواع التطبيع والخنوع والاستسلام للمحتل الغاصب، ومن ثم فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من إشارة إلى بعض مشاهد الطبيعة باعتبارها امتدادًا للوطن الذي ينتمي إليه، فالطبيعة في شعره ليست تبدو كالشعراء الرومانتيكيين – على سبيل المثال – الذين تغنوا بالطبيعة باعتبارها مصدر إلهام ووحي للعشاق والمحبين، وإنما مصدر ثري يمتحي من معينه صورًا شعرية تعبِّر عن مضامين ثورية.

ولقد كان للطبيعة عند سميح القاسم حضور بارز في الكثير من أشعاره، نظرًا لكونه شاعرًا من شعراء الثورة والرفض والتعبير عن الانتماء للوطن بكل ما فيه من أرض وسماء وكل مظاهر الطبيعة التي شكَّلت هذا الوطن؛ "فالشاعر مهما يكن من عبقريته وأصالته وتفرده يتأثر في التكوين النهائي لطبيعته الفنية بأحوال الجنس، والبيئة والعصر الذي عاش فيه، وقد يكون هذا التأثير واضحًا جليًّا، وقد يكون مستترًا خفيًّا، لكنه دائمًا موجود عند كل شاعر"[٧].

فمن خلال توظيف اللون المرتبط بشعر الطبيعة نجد أن القصيدة أصبحت مشبَّعة بالدلالات الرمزية، التي لا تتوقف عند مجرد المعنى المباشر، والدلالات البسيطة، وإنما تتعداها إلى المعاني المركبة والإشارات البعيدة التي نستجليها بالغوص في البنية العميقة للقصيدة، وفي قلب ذلك نجد التوظيف الرمزي للألوان لتكون محملة بدلالات متعددة، وذات أبعاد فكرية وسياسية ودينية.

إن اللون الأخضر من الألوان التي اهتم بها الشعراء وأكثروا من توظيفها في شعرهم، فهو لون يعكس دلالات مرتبطة بالشعور بالارتياح والهدوء، والإحساس بالصفاء والجمال، نظرًا لصلته الوثيقة بالطبيعة "فهو في تأثيره النفسي والشعوري على مزاج الإنسان وحالته الانفعالية لون طبيعي وقريب إلى الروح، منعش، رطب، مهدئ، يوحي بالراحة، إذ يضفي بعض السكينة على النفس"[٨]. والملاحظ أن الشاعر سميح القاسم استخدم اللون الأخضر في شعره للدلالة على الخير والنماء وفيض الطبيعة، وجمال الوطن. وفي قصيدة (ليلى العدنية) يوظف الشاعر الشمس باعتبارها إحدى مفردات الطبيعة التي كان لها أثر على الرجال المجاهدين الأبطال فصبغتهم باللون (الأسمر)، يقول الشاعر[٩]:

مثل خفّ الجمل الجوّال في البيد الرحيبة
كانت الشمس الكئيبة
مثل وجه الجثة الملقاة في أرضٍ غريبة
كانت الشمس الكئيبة
ضوءها الشاحب، ينهار على السمر الرجال

في النص أثر الحرب والقتال ضد العدو، حيث نهاية المعركة في آخر اليوم وكثرة القتلى والضحايا، والملاحظ ان الجو العام سيطر عليه الكآبة والحزن والألم والموت، نستجلي هذا في الصور اللونية الموجودة في النص، مثل: (ضوءها الشاحب)، والشحوب يعني غياب اللون، إشارة إلى العلة والمرض، والموت المخيِّم على الأجواء، وفي قوله: (ينهار على السمر الرجال) تشخيص لون الشمس الباهت بأنه كالشيء الثقيل الذي ينهار ويثقل على الرجال السمر، فيقتلهم ويميتهم.

من خلال جمع الألوان المتوائمة بجوار البعض يخلق الشاعر رؤية بصرية تختلف دلالتها انشراحاً وانقباضاً بحسب الحالة النفسية، على نحو يشبه التواؤم هو الذي يعنيه المحدثون بانسجام الألوان وائتلافها[١٠]، وقد عمل الشاعر على تعضيد الصورة اللونية بصورة بصرية غاية في الإيحاء والتعبير عن المعنى في قوله: (كانت الشمس الكئيبة مثل وجه الجثة)، حيث تشخيص الشمس وتصويرها إنساناً كئيبًا عابس الملامح، كالح الوجه، حتى إنه يشبه الجثة الميتة في قبحها والحزن

المسيطر عليها، مع ملاحظة تكرار (الشمس الكئيبة) مرتين للتأكيد على معنى الكآبة والعبوس والحزن المسيطر على أجواء المكان.

وفي قصيدة (أمشي) صورة بصرية فيها يجمع الشاعر بين مفردات الطبيعة (قمرٌ، بستان، العوسج، الريحان، سماءٌ تمطر)، وبين اللون الأحمر، ويوظف الشاعر اللون الأحمر باعتباره رمزًا للعواطف المشتعلة، بالطاقة والمرح، أحيانًا، والثورة والغضب أحيانًا أخرى، يقول الشاعر[١١]:

وأنا أمشي وأنا أمشي..
قلبي قمرٌ أحمر..
قلبي بستان..
فيه العوسج، فيه الريحان
شفتاي.. سماءٌ تمطر
نارًا حينًا حبًا أحيان!
وأنا أمشي.. أمشي

وفي قوله: (قلبي قمر أحمر) جمع الشاعر بين (القمر) وهو رمز النور والضياء والإشعاع على الكون، وبين (اللون الأحمر)، رمز العاطفة الجياشة والانفعال الشديد، ليدل على الحيوية والطاقة، ليدل على فيض مشاعره الجياشة على الكون المحيط به، سواء أكانت تلك المشاعر (نارًا حينًا) أم (حبًا أحيان)، كلاهما صادر عن قلب أحمر، وكلاهما فياض مشتعل.

من خلال إعادة قراءة النص نجد المزاوجة بين (قمرٌ أحمر) و(فيه العوسج، فيه الريحان) و(نارًا حينًا) والبحث في هذه المدركات الثلاثة نجد أنها تنوعت بين الصورة البصرية اللونية في (قمرٌ أحمر)، والصورة الحسية الشمية في (فيه العوسج، فيه الريحان) والصورة الحسية اللمسية في (نارًا حينًا)، أي إن النص قد زاوج بين ثلاثة من الصور الحسية، ودمج هذه الصور الحسية في صور معنوية مشكلة من مدركات حسية ومعنوية في الوقت نفسه مجردة نجدها في (قلبي بستان) و(شفتاي سماءٌ تمطر) و(حبًا أحيان)، وكل هذه الصور والمعطيات النصية تؤشر على تداخل الحواس وتعالقها من أجل تصوير حب الوطن وتعلق الشاعر به.

تزدهر الصورة الشعرية على "يد صانع يعرف كيف يضم الخط إلى الخط، واللون إلى اللون، والضوء إلى الضوء، والظل إلى الظل، فلا تحس نشازًا بل تحس استواءً وائتلافًا"[١٢]. وفي النص السابق قام الشاعر بمزج مفردات الطبيعة (القمرٌ، البستان، العوسج، الريحان، السماءٌ التي تمطر)، وبين اللون الأحمر، ليخرج صورة بصرية لونية غاية في الجمال والروعة، والتعبير عن العواطف المشتعلة،

والانفعال المتأجج، وفي قصيدة (زنابق لمزهرية فيروز) يصبغ الشاعر اللون الأحمر بأزهار (الزنابق) باعتبارها مفردة من مفردات الطبيعة، ليلونها بلونه المناسب لحالته الشعورية، يقول الشاعر[١٣]:

– لديّ يا صديقة
زنابق حمراء
ألوانها دماء
من القدس العتيقة
زنبقة حزينة
من دمّ بنت عمَّ
وجدتها مذبوحة
في طاقةً مفتوحة

لقد وصف الشاعر الزنبقة بقوله: (زنابق حمراء ألوانها دماء) مصبوغة بلون الدم، والقتل، وتوظيف اللون الأحمر وتلوين الزنبقة به يوحي بالانفعال الجارف الذي بداخل الشاعر، فانعكس على رؤيته للزنبقة، وكل ما حوله من أشياء.

من خلال إعادة قراءة النص نجد الأحمر هو المسيطر على اللوحة اللونية في النص، من خلال تلاحم الأشياء الدالة على اللون الأحمر، بداية من (زنابق حمراء) التي احتوت على تصريح باللون الأحمر، وفي (ألوانها دماء) تعبير عن الحمرة من خلال لون الدماء، وفي (زنبقة حزينة) إشارة إلى اللون الأحمر لون الزنابق.

لقد غلب اللون الأحمر والألفاظ الدالة عليه في كل من (زنابق حمراء)، (ألوانها دماء)، (دمّ بنت عمَّ) وفي ثنايا هذه الصور اللونية البصرية نجد ثمة صور معنوية مجردة في كل من (القدس العتيقة)، (زنبقة حزينة) مما يدل على حشد الصور بأنواعها المختلفة للتعبير عن المعنى الذي يسعى الشاعر إلى إيصاله للمتلقي.

يرى النقاد والدارسون أن "الألوان لها قدرة إيحائية عالية لما لها من بعد فكر ونفسي على المتلقي عبر إيجاده شبكة علاقات متجاورة منتجة لغة تواصلية، واللون عنصر مهم في هذه الشبكة لما يحمله من دلالات سيميائية وطاقات إيحائية عميقة تسهم في تفعيل الرؤية الفنية"[١٤]. ومن خلال قراءة النتاج الشعري للشاعر المقاوم سميح القاسم نجده يتميز ببروز ظاهرة اللون، بدلالاتها المختلفة التي تحقق الكثير من لدلالات والإشارات التي تساهم في إثراء التجربة الشعرية له وقد احتل اللون الأحمر مكانة بارزة، وحيزًا كبيرًا في صوره الشعرية، وهو أمر غير مستبعد؛ فهو الشاعر المقاوم الثائر

الرافض، وقد عبَّر عن موقفه الثوري المتميز بالعواطف المشتعلة والانفعالات المتأججة، ومن ثم برز اللون الأحمر لأنه نتيجة طبيعية لتلك الدلالات.

وفي نص آخر يربط الشاعر بين الحالة النفسية التي تتلون بها نفسه وأحاسيسه الداخلية، وبين الطبيعة من حوله، يقول سميح القاسم[١٥]:

همي مطرًا على صحراء
تشربه إلى الأعماق
قلبي الأسود الصلصال
فأصبح وردة حمراء
وأصبح بعد عقم طال،
جوهرة.. وكمثراة
وعصفوراً، ومصباحاً على الطرقات

في النص لونان، أولهما نجده في قوله: (قلبي الأسود الصلصال)، حيث لوَّن قلبه باللون الأسود، وهو لون التربة والأرض الطيبة، ليدل على الربط بين ذاته وأرضه التي خرج منها، أما اللون الثاني ففي: (وردة حمراء) حيث اقتبس من الطبيعة اللون الأحمر، لون الوردة الجميلة التي تدل على دلالات الجمال والبهاء وحسن المنظر وجمال الرائحة، وكلها معاني تنسحب على قلبه من خلال التشبيه؛ ليدل على حب الخير والجمال.

والملاحظ أن الشاعر قد شكَّل النص بمجموعة من المفردات الطبيعية التي تشكل صورة بصرية معبرة عن الحالة المعنوية والنفسية للشاعر؛ فإلى جانب الصورة اللونية في كل من (قلبي الأسود الصلصال) و(فأصبح وردة حمراء)، فإننا نجد (جوهرة.. وكمثراة) و(عصفوراً، ومصباحًا) وكلها موجودات الطبيعة الحية المحيطة بالشاعر.

يرى بعض النقاد أن الشاعر في عمله الإبداعي لا يهدف إلى مطابقة الواقع بما يدلّ عليه من حقائق، وإنما "يستعمل الصور ليعبُر حالات غامضة لا يُستطاع بلوغها مباشرة أو من أجل أن تنقل الدلالة الحقّة لما يجده الشّاعر"[١٦]. وفي النص السابق عبَّر الشاعر المبدع سميح القاسم عن مراده بطريه إيحائية مستمدة من دلالات اللونين الأحمر والأسود، وفي نص يقول[١٧]:

عبسًا تحاول أن تنام
قدِّر عليك البؤس والألم المبرح والسقام
مأساتك السوداء كانت منذ قال الله: فليكن الوجود

وكان .. ثم بدا له أن يصنع الشمس اللعينة والحياة
فدارت الأجرام في الفلك المقيت ودبت الأحياء
في الآفاق سائبة يعيش ببعضها بعض .. وكنت
لتلتقي في روحك الموبوء آلام الخليقة والشقاء المر من ندم
يغلغل في كيانك كلما أوغلت
في تقليد ما سواك، بالعقل المعذب والهيام

هذا النص يتشكَّل من خلال مجموعة من عناصر الطبيعة التي تلاحمت وتشابكت لتعكس الآلام والجراح التي فاضت بها روح الشاعر ووجدانه، مما جعله ينظر إلى الطبيعة من حوله من خلال عدسة سوداء، لونت كل المظاهر من حوله وشكلته باللون الأسود، يتجلى ذلك في قوله: (مأساتك السوداء) حيث صوَّر المأساة – وهي أمر معنوي – جسَّدها وجعلها تتلون باللون الأسود لون الظلمة والحزن، والإحساس بالألم والوجع والجرح.

من خلال القراءة الثانية للنص نجد المزاوجة بين الصور المادية الحسية والصور المجردة المعنوية، ففي صور مثل (الشمس اللعينة)، و(الفلك المقيت)، و(الشقاء المر)، و(العقل المعذب) نجد تجريد الصور المادية وتحويلها إلى صور مجردة تعبِّر عن حالة الحزن والشقاء التي يعانيها الشاعر.

وقد عبَّر الشاعر عن تلك الحالة النفسية والوجدانية بمجموعة من الجمل والتراكيب مثل: (قدِّر عليك البؤس)، و(الألم المبرح والسقام)، و(روحك الموبوء) (ندم يغلغل في كيانك)، و(العقل المعذب) وكلها صور تجسَّد دلالات الألم والشقاء والحزن، الذي يتلاءم ويتعاضد بالصورة اللونية في (مأساتك السوداء).

يمكن القول إن الصورة الجيدة والتشبيه الجيد يكون بأن "تطبع في وجدان سامعك وفكره صور واضحة مما انطبع في ذات نفسك، وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس، وبقوة الشعور ونقيضه وعمقه واتساع مداه ونفاده إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر عن سواه"[١٨]. وفي الصورة اللونية (بمأساتك السوداء) قد انعكست رؤية الشاعر وإحساسه على العالم فكساه صفات معنوية يمكن القول إنها اتشحت باللون الأسود، يتجلى ذلك في الصورة الكلية في النص التي تحمل دلالات سلبية تعكس ذات الشاعر المعذبة الشاعرة بالألم والحزن.

وفي نص آخر يزاوج الشاعر بين اللونين الأسود والأحمر فيدمجهما معًا في الطبيعة المحيطة به في قوله[١٩]:

خانق الجدران، تسرح في جوانبه الجديبة
سائمات الظلمة النكراء، تنهشه الأفاعي والذئاب!
وتند عنه، جريحة الأصداء، عاثرة التمرد،
صرخة رعناء دامية،
تمزقها الأعاصير الغبية ثم يلقفها ويبلعها
المدى المطمور في الدم، في المزابل
في الخرائب، في الضباب!!

في معرض الحديث عن حالة من الحزن والشقاء، والتيه والضلال، نجد الشاعر قد أخرج ما في نفسه من شحنات سلبية، وجعلها تنعكس على الكون المحيط به، فرسم صورة سوداء للفضاء، هذه الصورة ملونة بألوان تناسب ما بداخله من مشاعر وأحاسيس، والشاعر يستدعي اللون الأسود من خلال أحد تمثُّلاته، حيث (الظلمة النكراء)، فالظلمة هي السواد الحالك، وترتبط دائمًا باللون الأسود.

إلى جانب اللون الأسود ودلالاته نجد تمثيل للون الأحمر في (المدى المطمور في الدم)، حيث جعل الفضاء من حولها، والكون بكل مفرداته ملون ومصبوغ باللون الأحمر لون الدماء، للدلالة على حالة الانفعال الشديد المسيطر عليه، وقد أكد المعنى بقوله: (صرخة رعناء دامية) حيث تشخصي الصرخة وتجسيدها وتلوينها بلون الدماء المائل للحمرة القانية، مع ملاحظة كلمة رعناء التي تشير إلى دلالات القوة والشدة والاضطراب، وكل هذه الدلالات نستجليها من مفردة الرعناء، فمن خلال البحث في المعجم العربي ودلالات كلمة الرعناء نجد أن الأَرْعَنُ: الأَهْوَجُ فِي مَنْطِقِهِ المسْتَرْخي. والرُّعُونة: الحُمْقُ والاسْتِرْخاء. رَجُلٌ أَرْعَنُ وامرأَة رَعْناء بَيِّنا الرُّعُونة، وَرَعَنَتْهُ الشمسُ: آلَمَتْ دِمَاغَهُ فَاسْتَرْخَى لِذَلِكَ وغُشِيَ عَلَيْهِ. وَيُقَالُ: الجيشُ الأَرْعَنُ هو الْمُضْطَرِبُ لِكَثْرَتِهِ؛ وَقِيلَ: الرَّعُون الْكَثِيرَةُ الْحَرَكَةِ٢٠.

وفي (جريحة الأصداء) يكرر الشاعر ويؤكد على اللون الأحمر لون الدماء باعتباره اللون الغالب المسيطر على الكون من حوله، من خلال تقنية تراسل الحواس، فتحويل الأصداء أي رجع الأصوات وهي مدرك من السمع فصبغها ولونها وجعلها مرئية ومدركة بحاسة البصر.

إلى جانب دلالات اللون الأحمر فإن النص أكد على المعاني ذاتها من خلال الدلالات الإيحائية لتلوين الكون بألوان مستوحاة من الحالة النفسية للشاعر، ومن ذلك قوله: (خانق الجدران،

تسرح في جوانبه الجديبة)، حيث سلب الألوان والظلال والأشكال المبهجة في الفضاء من حوله، والإبقاء فقط على معاني الجدب والقفر والكآبة في الفضاء المحيط به.

تُعرَّف الصورة الشعرية بأنها "تشكيل جمالي تستحضر فيه لغة الإبداع الهيئة الحسية أو الشعورية للأجسام أو المعاني بصياغة جديدة تمليها قدرة الشاعر وتجربته وفق تعادلية فنية بين طرفين هما المجاز والحقيقة دون ان يستبد طرف بآخر"[٢١]. وفي هذا النص نجد الشعر قد كسى الموجودات في الطبيعة من حوله بصورة بصرية نابعة من وحي الخيال واللون الذي اتشحت به ذاته، وفي قوله: (صرخة رعناء دامية) نجد تلك الصرخة الدموية التي تلونت باللون الأحمر لون الدماء والغضب والانفعالات الشديدة للتعبير عن شدة الألم والضيق والقلق النفسي الذي يشتعل بداخل الشاعر.

وفي نص آخر يقول الشاعر[٢٢]:

من ملكوت طحالبك السوداء
يا بئراً جفت من عشرين
أصعد بالماء
باسم الأسلاف المفجوعين
والأحفاد الموعودين ...
من ملكوت طحالبك السوداء
يا قوس النصر المهدوم

اللون الأسود له كثير من الدلالات السلبية؛ فهو لون الأرض الطينية، ولون اليأس والحزن، وهو لون التشاؤم، وقد اقتنص الشاعر تلك الدلالات وسحبها على بنية النص، فلون القصيدة به من خلال الإيحاءات المستوحاة من قوله: (من ملكوت طحالبك السوداء) حيث التعبير عن الظلمة الحالكة والإحساس بالحزن والتشاؤم والاستسلام للهزيمة والخيبة والضيع، مع ملاحظة الارتباط بين الطحالب السوداء والماء الآسن، في (بئراً جفت من عشرين) فهو البئر الجاف غير الصالح للشرب، بالإضافة إلى أسلوب النداء في قوله: (يا قوس النصر المهدوم) الذي عبر عن دلالات الهزيمة والإحساس بالخيبة الشديدة واليأس والاستسلام.

فالنص حفل بالدلالات السلبية التي تنسحب على الجو العام في النص من خلال تلوينه باللون الأسود، والملاحظ أن اللون الأسود احتل مساحة كبيرة في شعر سميح القاسم وكثير من الشعراء العربي في العصر الحديث، ويمكن تعليل ذلك – ربما – إلى معاصرة أحداث جسيمة وهزائم وانكسارات للعرب كنكبة فلسطين، ونكسة الخامس من يونيو، وغيرها من أحداث كان لها أثر

عظيم على وجدان الإنسان العربي المعاصر، ويمكن القول إنه: "قد تكون للحالة السوداوية التي عاشها الإنسان العربي في سلسلة متتالية من النكبات والهزائم والموت والحداد عاملا بارزا للانتقال حركة الواقع المسود إلى أحاسيس الشعراء وأقوالهم وقد دل اللون الأسود على دلالات أكثر وأعمق مما هو موروث عند الناس"[٢٣].

لأنّ "النفس الإنسانيّة مولعة بكلّ ما هو جميل لذلك تضيق النفس بالصور التقريرية الفجّة الساذجة، أمّا المجاز فهو يكسو الصورة الشعريّة جمالًا وروعة تجذب إليه النفوس"[٢٤]. ففي شعر المبدعين والفحول نجد الشعراء يتخذون من الصور الشعرية الموحية المعبرة أداة للتعبير عن المعاني مستخدمين كافة الوسائل الفنية المتاحة، ومن هؤلاء الشعراء سميح القاسم الذي حفل شعره بالعديد من الوسائل ومنها عنصر اللون ليعبر عن مضمون القصيدة، ومن ذلك قوله[٢٥]:

ماضيك تثقله الأناشيد الرتيبه

وزهورك الحمراء يابسة...

وعنزتك الكئيبه

ماتت من الجوع اللعين

يعبر الشاعر عن حالة الحزن واليأس، وفي النص يوظف الشاعر اللون ليعكس الحالة النفسية التي بداخلها، ففي قوله: (زهورك الحمراء يابسة) نجد دلالات اللون الأحمر والزهرة الحمراء الجميلة ذات الرائحة العطرة واللون الجميل الذي يأسر القلوب ويأخذ الألباب والعقول، بيد أن هذه الوردة الحمراء الجميلة صارت (يابسة)، أي ذابلة جافة وفقدت نضارتها وجمال منظرها، وذهب عبقها ورائحتها العطرة، فالحالة النفسية والوجدانية التي بداخل الشاعر انعكست على رؤيته للأشياء فصبغها باللون المناسب لإحساسه.

يرى أحد النقاد أن "اللون في الشعر يختلف عنه في الكلام العادي، فالشاعرية تحمل اللون أبعادًا فوق دلالتها الأصلية، وتختلف تلك الأبعاد بعد ذلك في رمزيتها ودرجة إيحائها"[٢٦]، ففي لنصوص الشعرية كالنص السابق نجد التعبير الرمزي للون بهدف الإفصاح عن حالة وجدانية بصورة ضمنة يستجليها المتلقي من خلال الحفر في البنى العميقة للنص، وشبيه بذلك قوله الشاعر سميح القاسم[٢٧]:

أنا والسيول المستميته

في سفرة لا تنتهي.. حتى نعيد إلى الحدائق

حسنها المنفي .. والجذر المترمَّد في الحدائق !

حتى يشب اللوز والزيتون والتفاح
في جرح الخنادق!
ويرمم الانسان أنقاض المدارس والمصانع
وتفجر الألغام أنهاراً..
وتخضر المزارع!!

فهو يأخذ من عناصر الطبيعة (اللوز، الزيتون، التفاح، الأنهار، والمزارع) ما يدل على الحالة النفسية والشعورية المسيطرة عليه، حيث دلالات المقاومة والأمل المتجدد، والحلم ببعث جديد، وفي (تخضر المزارع) توظيف للون الأخضر باعتباره رمز الخضرة والنماء والخير المتجدد، ليؤكد على إعادة الاستنبات وإحياء الزرع من جديد.

وإننا إذا أخذنا نفحص في ألفاظ النص وتعبيراته سنجد التحام الألوان بدلالاتها المستوحاة من مفردات الطبيعة للتعبير عن حالة الأمل الذي يتشبث به الشاعر، بداية من قوله: (أنا والسيول المستميته) حيث الربط بين حالته النفسية وصورة تلك السيول الجارفة التي تجرف كل المعوقات والعراقيل التي تحول دون وصول المياه لإلى مصبها وهدفها التذي تنتوي الوصول إليه، وفي الجملة الخبرية (حتى نعيد إلى الحدائق حسنها المنفي) تأكيد على المعنى نفسه حيث السعي الدءوب نحو تحقيق الحلم والأم، وقد عبَّر عن ذلك الجلم بدلالات الحدائق التي شملها الجدب والجفاف، وبرغم ذلك فإن الشاعر مصمم على استعادة الحلم وجلب ألوان الخضرة والنماء لهذه الحدائق، الذي وصفها بأن (الجذر المترمَّد في الحدائق) حيث اقتناص دلالات اللون الرمادي الذي شاب الحدائق فغطى على ألوان (اللوز والزيتون والتفاح) حيث الألوان الخضراء والحمراء والزرقاء وكل الألوان المبهجة التي كانت تتلون بها الحدائق سابقًا.

الشاعر وظَّف اللون للدلالة على الأمل والبعث من جديد، ولإكساب النص جمال مستوحى من الصورة الشعرية المشكلة من عناصر الطبيعة، وقد قيل "إن شعور الإنسان بالجمال لهو من جوهر الطبيعة الإنسانية، وهذا الشعور هو الذي يوسع قيم الأشكال والأصوات والألوان والعطور حتى اللانهاية"[٢٨]. وفي نص آخر نجد الشاعر من خلال عناصر الطبيعة (الأمطار، البرق، النسمة، الإعصار) يقوم بتلوينها وإكسابها صورة بصرية مرئية جمالية للتعبير عن الحالة الشعورية له، يقول[٢٩]:

أطلع في الأمطار
أطلع في البرق الأزرق

في النسمة، في الإعصار
أطلع من جرح فتحته قذيفه
في صدر جدار
أطلع من عطش الآبار
أطلع من قنطرة صامدة
في وجه الريح
من نصبة لوز صامدة
فيي وجه النار

يوظف الشاعر عناصر الطبيعة ومفرداتها، وكل شيء في البيئة للتعبير عن روح الصمود والوعد بالبعث من جديد من أجل تحرير الأرض واسترجاع الحقول، ويهدد المغتصب بأنه محاصر ولا مفر له ولا ملجأ من الشعب الثائر الذي هب لاسترجاع حقوقه، وفي قوله (البرق الأزرق) يوظف الشاعر اللون الأزرق رمز (الماء) سبب كل شيء حي، للدلالة على المطر والخير المأمول الذي سيهبط من السماء حاملًا البشرى والأمل بتحقيق الحلم.

من خلال قراءة النصوص الشعرية في ديوان سميح القاسم المرتبط بوصف الطبيعة أو الحديث عنها، أو الحديث من خلالها، فيمكن القول إن شعر الطبيعة قد شهد احتفاءً بجماليات اللون في كل اتجاه، وعبر كل المستويات، وفيه نجد "الانتقال في توظيف اللون من لغة الرؤية المسطحة إلى لغة الرؤيا المركبة امتياحًا من توظيف الحمولات الفونولوجية والمعجمية والصرفية والفيزيقية والأنثروبولوجية لنسق اللون[٣٠].

خاتمة البحث وأهم نتائجه

يعد الشاعر سميح القاسم من الشعراء العرب البارزين في الشعر المعاصر، وقد احتوت أشعاره على كثير من مظاهر الإبداع والبراعة الفنية، نتيجة تمكنه من الأدوات الفنية التي تعينه على التعبير عن التجربة الشعرية بطرق ووسائل فنية غاية في البراعة، ومن هذا المنطلق قد كان البحث الذي يهدف إلى تسليط الضوء على جانب من جوانب شعر سميح القاسم، حيث البحث في تجليات اللون في شعر الطبيعة عنده، وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- كان لشعر الطبيعة عند الشاعر سميح القاسم حضور بارز في الكثير من أشعاره، نظرًا لكونه شاعر من شعراء الثورة والرفض والتعبير عن الانتماء للوطن بكل ما فيه من أرض وسماء وكل مظاهر الطبيعة التي شكَّلت هذا الوطن.
- شهد شعر الطبيعة احتفاءً بجماليات اللون في كل اتجاه، وعبر كل المستويات، فمن خلال دراسة تجليات اللون في شعر الطبيعة تبين للبحث أن القصيدة أصبحت مشبَّعة بالدلالات الرمزية، وليس مجرد التعبير عن المعنى بصورة مباشرة من خلال الوصف المباشر لمفردات الطبيعة كما تبدو ظاهرة للعيان، وإنما تتعداها إلى المعاني المركبة والإشارات البعيدة والدلالات المتعددة، ذات أبعاد فكرية وسياسية ودينية.
- من خلال دراسة دلالات الألوان في شعر سميح القاسم، ولا سيما شعر الطبيعة، تبين للبحث تعدد الدلالات واختلافها لكل لون، بحيث تكون معبرة عن الحالة الانفعالية والنفسية المسيطرة على الجو العام للقصيدة.

الهوامش:

[1] سميح القاسم:

شاعر فلسطيني يعد أحد أهم وأشهر الشعراء العرب والفلسطينيين المعاصرين، ولد في الحادي عشر من١١ مايو عام ١٩٣٩ م، ينحدر من عائلة فلسطينية من عرب ٤٨، في مدينة الرامة بالجليل الغربي، تعلم في مدينة الرامة والناصرة.

عمل رئيس التحرير الفخري لصحيفة كل العرب، وكان عضوًا سابقًا في الحزب الشيوعي، وانصرف إلى نشاطه السياسي في الحزب الشيوعي، وسُجِن أكثر من مرة، كما وُضِعَ رهن الإقامة الجبرية والاعتقال المنزلي وطُرِدَ مِن عمله مرَّات عدّة بسبب نشاطه الشِّعري والسياسي، ثم ترك الحزب ليتفرغ لعمله الأدبي.

ارتبط اسمه بشعر الثورة والمقاومة من داخل أراضي العام ٤٨، حيث تناول في شعره الكفاح والمعاناة الفلسطينيين، صَدَرَ له أكثر من ٨٧ كتاباً في الشعر والقصة والمسرح والمقالة والترجمة، وصدَرتْ أعماله الناجزة في سبعة مجلّدات عن دور نشر عدّة في القدس وبيروت والقاهرة.

توزّعت أعمال سميح القاسم ما بينَ الشعر والنثر والمسرحية والرواية والبحث والترجمة، ومن أشهر دواوينه الشعرية: (مواكب الشمس، أغاني الدروب إرَم، دمي على كفّي، دخان البراكين، سقوط الأقنعة، ويكون أن يأتي طائر الرعد، إسكندرون في رحلة الخارج ورحلة الداخل، قرآن الموت والياسمين، الموت الكبير، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، أحبك كما يشتهي الموت، الجانب المعتم من التفاحة، جهات الروح، قرابين، لا أستأذن أحداً، سبحة للسجلات، أُخْذة الأميرة يبوس، الكتب السبعة، أرضٌ مراوغةٌ. حريرٌ كاسدٌ. لا بأس، سأخرج من صورتي ذات يوم، الممثل وقصائد أُخرى، بغداد وقائد أُخرى، كتاب القدس، حزام الورد الناسف، العنقاء وقصائد أخرى، غوانتانامو وقصاد أخرى)، وقد طبعت هذه الدواوين منفردة أو في مجموعات، أو في مختارات.

وقد اعتمدت في هذا البحث على الأعمال الشعرية الكاملة، المسماة بديوان سميح القاسم، دار العودة، بيروت.

[2] قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ص٢٧٩.

[3] انظر: روز غريب: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ٢، ص ١٣.

[4] سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ص ٧.

[5] لمياء عبد الحميد القاضي: مرجعية الصورة في شعراء الطبيعة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (نحو اعتماد المرجعية أساسا نقديًا)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠١٢ م، ص ٢١٩.

[6] حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م، ص ٥٣.

[٧] علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص ٢٢٩.

[٨] فاتن عبد الجبار جواد: اللون لعبة سيميائية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ٢٠٠٩ م، ص ٩١.

[٩] سميح القاسم: ديوان سميح القاسم، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ٦٤٦.

[١٠] انظر: محمد عبد المطلب: قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤ م، ص ٤٦٧.

[١١] الديوان: ص ١٧٤.

[١٢] شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثامنة، ص ٢٣٩.

[١٣] الديوان: ص ٢٠٨.

[١٤] عاطي عبيات ومحمود شكيب أنصاري: اللون ودلالته في الشعر الفلسطيني المقاوم، مجلة جامعة الخليل للبحوث، الخليل، فلسطين، مج ٨، ع ١، ٢٠١٣ م، ص ٤٨.

[١٥] الديوان: ص ٢٨٧.

[١٦] مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م، ص ٢١٧.

[١٧] الديوان: ص ٣٠٦.

[١٨] محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤ م، ص ١٥٤.

[١٩] الديوان: ص ٣١٠.

[٢٠] انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ، ١٨٢/١٣.

[٢١] عبد الاله الصائغ: الصورة الفنية معياراً نقدياً، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ط ١، ١٩٨٧ م، ص ١٥٩.

[٢٢] الديوان: ص ٣٨٣.

[٢٣] ظاهر هزاع الزواهرة: اللون ودلالته في الشعر الأردني، أطروحة ماجستير، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، الجامعة الهاشمية، عمان، الأردن، ٢٠٠٧ م، ص ٩٤.

[٢٤] محمّد شرف حنفي: الصورة البيانيّة، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٥م، ص: ٢٢١.

[٢٥] الديوان: ص ٥٦٨.

[٢٦] خالد بن محمد الجديع: سيميائية اللون في الشعر السعودي المعاصر، مجلة عام الكتب، مج ٢٨، ع ١، ٦، ٢٠٠٩ م، ص ٤٤٣.

[٢٧] الديوان: ص ٥٧٣-٥٧٤.

[٢٨] أنطوان غطاس كرم: الرمزية والأدب العربي الحديث، دار الكشاف، بيروت، ط ١، ١٩٩٤ م، ص ٢٤.

[٢٩] الديوان: ص ٦٤٦.

[٣٠] محمد حافظ دياب: جماليات اللون في القصيدة العربية، مجلة فصول، مجلة النقد الأدبي، العدد ٢، المجلد ٥، يناير وفبراير ومارس ١٩٨٥ م، ص ٤٧.